الفصل السادس

علم البديع كما صورة العسكرى

علم البديع كما صوره العسكرى

وقد عدت هذه المحاسن من البديع بعد ابن المعتز ، وزيد فيها حتى بلغت عند أبى هلال العسكرى فى الصناعتين خمسة وثلاثين فنا وتقع فى الباب التاسع من كتابه الصناعتين ، وعقد لكل وجه منها فصلا وبيانها وترتيبها هو هذا :

١ - فى الاستعارة والمجاز. ٢ - فى التطبيق. ٣ - فى التجنيس.

٤ - فى المقابلة . ٥ - فى صحة التقسيم. ٦ - فى صحة التفسير.

٧ - فىالاشارة . ٨ - فى الارداف والتوابع . ٩ - فى المماثلة .

١٠- فى الغلو. ١١- فى المبالغة. ١٢ - فى الكناية والتعريض

١٣- فى العكس والتبديل. ١٤- فى التذييل. ١٥- فى التصريع .

١٦- فى الايغال . ١٧- فى الترشيح .

١٨ - فى رد الاعجاز على الصدور. ١٩- فى التكميل والتتميم.

٢٠- فى الالتفات . ٢١- فى الاعتراض . ٢٢- فى الرجوع.

٢٣- فى تجاهل العارف . ٢٤- فى الاستطراد. ٢٥- فى جمع المؤتلف والمختلف.

٢٦- فى السلب والايجاب. ٢٧- فى الاستثناء . ٢٨- فى المذهب الكلامى

٢٩- فى التشطير. ٣٠- فى المحاورة . ٣١- فى الاستشهاد والاحتجاج

٣٢- فى التعطف . ٣٣- فى المضاعف . ٣٤- فى التطريز .

٣٥- فى التلطف .

قال أبو هلال العسكرى:

" فهذه أنواع البديع التى ادعى من لا روية له ولا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها : وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين ...لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف ، وبرئ من العيوب كان فى غاية الحسن ونهاية الجودة . وقد شرحت فى هذا الكتاب فنونه وأوضحت طرقه ، وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع : التشطير ، والمحاورة ، والتطريز ، والمضاعف، والاستشهاد ، والتلطف.

وشذبته على ذلك فضل تشذيب ، وهذبته زيادة تهذيب . وبالله أستعين على ما يزلف لديه، ويستدعى من الإحسان من عنده ."(٤٩)

وأبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ خير من يمثل الدرس البلاغى فى القرن الرابع فهو أديب منشئ وراوية مشهود له بجودة الحفظ وأمانة النقل ،ومن بيت عرف بالفضل والعلم ،ونجده فى كتابه الصناعتين يكثر من النقل عن أستاذه وخاله أبى أحمد العسكرى .

وقد تمثل أبو هلال العسكرى الدراسات البلاغية السابقة عليه والمعاصرة له خير تمثل ؛ أثنى فى مقدمة كتابه الصناعتين على كتاب البيان والتبيين للجاحظ ورأى فى نفسه القدرة على إصلاح ما فى الكتاب من عيب فقال :" إن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان مبثوثة فى تضاعيفه ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة والشواهد لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير ، ووعد بأن يسد هذا النقص فى كتابه الصناعتين .

ونشهد إن ما قاله عن كتاب البيان والتبيين حق ، وإن ماوعد به قد تحقق وهذا لاينقص من قدر كتاب الجاحظ ؛ فقد أملاه على وراقه فى أخريات حياته وهو راقد على سريره نصفه مريض بالفالج ونصفه مريض بالنقرس وهما علتان متقابلتان ، وكان ذلك حين لزم داره بالبصرة وقد قارب التسعين من عمره .

ويزيد من قيمة كتابه الصناعتين أنه نقل كثيرا عن كتب الجاحظ وأحسن الترتيب والتبويب واستكمل الدرس البلاغى بالاستفادة من جهود السابقين عليه والمعاصرين له ، فنجد فى الكتاب ذكرا لأعلام الدرس البلاغى بعد الجاحظ : ابن المعتز ، والرمانى ، وابن طباطبا ، الباقلانى، وقدامة بن جعفر ومناقشة موضوعية لآرائهم .كما نجد شخصية العسكرى واضحة الاتجاه متسقة مع ما أعلنه فى مقدمة كتابه أن اتجاهه فى الدرس البلاغى مختلف عن طريقة المتكلمين، متفق مع طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب فهو من مدرسة البديع . ونجد كثيرا من شواهد الصناعتين قد تناولها عبد القاهر الجرجانى بالشرح والتحليل مما يدل دلالة قاطعة على نظره فى الكتاب واستفادته منه .

وقد درس الدكتور شوقى ضيف جهد العسكرى فى درس علم البديع فوجد أنه التقى مع ابن المعتز فى كتابه البديع فى عشرة فنون ، هى الاستعارة ، والتطبيق أو الطباق والتجنيس أو الجناس ، والكناية والتعريض ، ورد الأعجاز على الصدور ، والالتفات والاعتراض والرجوع وتجاهل العارف ، والمذهب الكلامى.

وأنه التقى بقدامة بن جعفر فى المصطلحات الآتية : المقابلة وصحة التقسيم، وصحة التفسير ،والاشارة ، والإرداف والتوابع ، والغلو ، والمبالغة ، والعكس والتبديل ، والترصيع والإيغال ، والترشيح ، والتكميل والتتميم ، وهى اثنا عشر مصطلحا تضاف إلى مصطلحات ابن المعتز السابقة فيبقى ثلاثة عشر مصطلحا أو فنا يقول إنه وضع منها ستة فتبقى هناك سبعة مصطلحات مجهولة النسب .

أما الستة التى وضعها فهى : التشطير ، والمحاورة ، والتطريز ، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف .والسبعة المسبوقة هى : المماثلة ، والتزييل والاستطراد ، وجمع المؤتلف والمختلف ، والسلب والايجاب ، والاستثناء والتعطف.

وقد ذهب الدكتور شوقى ضيف إلى أن أبا هلال قد جلب المصطلحات السبعة من رسالة خاله أبى أحمد فى صناعة الشعر ، قال :" فإننا نجد الباقلانى

يذكرها جميعا على هدى كتاب أبى أحمد خال أبى هلال العسكرى – فى صناعة الشعر ما عدا جمع المؤتلف والمختلف ٠٠ مما يدل على أن أبا هلال نقلها جميعا عن خاله ، وقد ردد اسمه مرارا فى كتابه .

ونحن نقف قليلا لنقارن بين هذه الفنون عند الباقلانى وعند أبى هلال لنثبت ما نزعمه من أن أبا هلال جلبها جميعا من خاله ..."

وانتهى الدكتور شوقى ضيف من المقارنة إلى القول : " وربما كان النوع الوحيد بين هذه الأنواع الستة الذى يمكن قبوله هو (التطريز) وهو أن تقابل كلمات متساوية الحروف فى القوافى كقول أبى تمام :

أَعْوَامُ وَصْلٍ كادَ يُنْسِى طُولَهَا ... ذِكْرُ النَّوَى فَكَأَنَّهَا أَيَّامُ

ثُم انْبَرَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ أُرْدِفَتْ ... بِجَوَى أَسَى فكأَنَّهَا أَعْوَامُ

ثم انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنُونَ وَأَهْلُهَا ... فَكَأَنَّهُمْ وَكَأَنَّهَا أَحْلَامُ

ونراه يضيف إلى هذه الستة ما سماه باسم " المشتق " وهو أن يشتق لفظ أو معنى من لفظ ، لتحسين شىء أو تقبيحه ، على نحو ما قال بعض الشعراء فى(نفطوية) العالم اللغوى المشهور :

أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِنِصْفِ اسْمِهِ ... وَصَيَّرَ البَاقِى صُرَاخًا عَلَيْهِ ."(٥٠)

ونحن نتوقف عن قبول الحكم الذى أصدره الدكتور شوقى ضيف على أبى هلال العسكرى والذى ذهب فيه إلى أن أبا هلال جلب كل فنون البديع الستة عن خاله ؛ لأن كتاب خاله مفقود ، ولأنه بنى هذا الحكم على افتراض أن أبا بكر محمد بن الطيب الباقلانى وأبا هلال العسكرى كلاهما نقل عن أبى أحمد العسكرى خال أبى هلال .

والمعروف أن الباقلانى توفى سنة ٤٠٣ هـ وأن أبا هلال العسكرى توفى سنة ٣٩٥ هـ فيترتب على هذه الحقيقة وجاهة الافتراض أن الباقلانى نقل عن أبى هلال العسكرى .

والحسم فى صحة أى الفرضين مترتب على الموازنة بين كتاب (صناعة الشعر) لأبى أحمد العسكرى وكتاب الصناعتين فى الموضوعات المشتركة ، وهذه الدراسة محوجة الى بحث مستقل .

وقد رأينا أن ندرس بعض ما دونه أبوهلال العسكرى عن فنون البديع لتحكم بنفسك على دوره فى بناء هذا العلم وعلى خصائص المدرسة الأدبية التى يمثلها، وهى الإكثار من الشواهد الأدبية من القرآن الكريم والسنة النبوية والشعر والكتابة والخطابة ، وعنايته بتحليل الشواهد ؛ ودلالة ذلك على مرتبته فى فقه العربية ورهافة حسه وصفاء ذوقه الأدبى ، والقيم الفنية والأخلاقية التى يمثلها اختياره لشواهده وتوجيهه لها .

أردنا بهذا الفصل أن نوقفك على نمو درس البديع من خلال أجيال الدارسين المخلصين الذين بادر الخلف منهم لحمل راية هذا العلم من السلف مجمعين على أن تظل راية هذا الدرس مرفوعة وأن تظل الإضافات محفوظة .

لقد شغل الدارسون المحدثون أنفسهم بتقصى ذكر السابق والآخذ وتشككوا كثيرا فى نية المؤلف فى البديع : هل هو آخذ ادعى لنفسه فضل السبق ؟ والشك فى العلماء دون مبرر قوى مضيعة للوقت والجهد ، ونشير بهذه العبارة إلى نص الدكتور شوقى ضيف المتقدم .

وننص صراحة على الظلم الفادح الذى ألحقه الدكتور محمد مندور بأبى هلال العسكرى وكتابه الصناعتين فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) وبعلم البديع عامة : وهى قضية أشرنا إليها فى كتابنا (المدخل إلى الأدب العربى ودراسته) وبنينا عليها حكمنا (إن درس الأدب درسان) : درس علمى ودرس تحركه الجاهلية.